

داعش بين الهزائم العسكرية و الانتحار الفكري

مقتطف من كتاب نشأة و أدبيات الفكر المتطرف/ من الخوارج إلى الدواعش



رياض السمراني

الهزائم العسكرية و انحسار نفوذ التنظيم:

لقد لعبت الضربات العسكرية الموجعة التي تلقاها تنظيم الدولة الإسلامية في كل من سوريا و العراق و ليبيا إضافة إلى الهزيمة النكراء التي مني بها في مدينة بنقردان في الجنوب التونسي و التي كان من خلالها يتطلع إلى إحداث منطقة توحش تمثل محور إمداد آمن يصل بينها و بين مدينتي زوارة و سبراتة الليبيين تكون في مرحلة ما بمثابة القاعدة اللوجستية الخلفية للتنظيم و مسلك انسحاب تكتيكي لعناصره في صورة توغل قوات الجنرال خليفة حفر في المنطقة. هذه الهزائم جعلت من نفوذ التنظيم يتلاشى في بعض المناطق و ينحسر في أخرى بشكل كبير مما دفع بمجلس شورى البغدادي و ديوان إفتائه إلى تحميل بعض عناصر التنظيم مسؤولية ما يتلقاه من ضربات طالت أعماق دفاعاته و قدراته العسكرية و قد طالعا في عديد المرات عبر وسائل الإعلام و شبكة الانترنت تنفيذ أحكام الإعدام في حق عناصر داعشية و تصفية قيادات ميدانية بطرق شتى في إشارة إلى من تبقى من أتباعه بوجوب الطاعة و عدم الخروج عن الأمير و نبذ ما لا يوافق سياساته العامة من طرح و فكر و اعتقاد في إشارة إلى بروز نخبة من المتطرفين صلب التنظيم لا تدين بالولاء لتنظيم البغدادي.

لعب القرار السياسي الدولي دورا حاسما في قلب الطاولة على تنظيم البغدادي و قد شكل الجيش العراقي مدعوما بالحشد الشعبي أول المسامير التي دقت في أخشاب مشنقة داعش في كل المنطقة العربية حيث كشف تحرير الفلوجة الاهتزاز العسكري للتنظيم على مرمى قذيفة مدفع من عاصمة الخلافة المزعومة بالموصل مما يثبت ضعف قيادته المركزية و إمكانية ضربه في أعماقه و تباعا إلى أن يطرد بشكل كامل من العراق.

دخول المقاتلين الأكراد على الخط وضع التنظيم بين أصابع الكماشة، فتقدم عناصرهم

نحو نينوى قطع طرق الإمداد من الرقة و ساهم في كتم أنفاس التنظيم شيئا فشيئا.

على صعيد آخر، ساهم الجيش الروسي في تغيير الواقع الميداني في سوريا إذ لعب تحرير تدمر و دير الزور و فك الحصار على مطار منغ العسكري المحاصر نذير شؤم للدواعش وقلب كامل لموازن القوى في المنطقة ناهيك و أن طلائع الجيش العربي السوري على وشك إزهاق روح التنظيم في آخر معاقله و إعلان التطهير الكامل للتراب السوري من نجاسة دولة البغدادي.

الصراع الفكري بين الدواعش و ظهور فرق كلامية صلب التنظيم

حرص تنظيم الدولة الإسلامية منذ نشأته على تلافى مواطن الخلاف الفقهيّة و المنهجية التي أودت بالإمكانات العسكرية لتنظيم القاعدة و قدرته على استقطاب مقاتلين جدد في صفوفه و إذ حافظ التنظيم على نفس أهداف القاعدة ضمن بروتوكول الجهاد العالمي إلا أنه انتهج لنفسه سياسة جهادية مخالفة لما ألفينا عليه القاعدة و تتجاوز الطرح الفكري لأبي بكر ناجي و غيره في نقاط و مسائل عديدة.

و قد بينا في غير موضع من هذا الكتاب أن الخوارج رموا مخالفيهم في الفكر بالشرك و الزندقة و أن ابن عبد الوهاب و أتباعه و قطب و المودودي قد أطنبوا في تكفير مخالفيهم ممن سلكوا الاعتدال في فهم الخطاب الديني و تطبيق تعاليمه و لم تشذ المدرسة السرورية و باقي فرق الصحوة الإسلامية على منهج تنظيم القاعدة و داعش و نحوها في التكفير و التجسيم، لكن اليوم ظهر مولود مشوه يخرج من رحم الفكر الداعشي سمّي بالتيار الحازمي يوغل في التكفير و الحقد أكثر بكثير من سلفه حيث يعتبر أن عدم التكفير حتى بعذر الجهل أو التأويل كفرًا في حد ذاته و رمى المخالفين بالإرجاء و التجهّم و ينقلب السحر على الساحر و يخرج منهم من يعتبر أن "الدولة الإسلامية" المزعومة هي دولة كفر و ردّة حيث يصرّح أحد أتباع التيار الحازمي في سبتمبر 2015 أن دولة البغدادي ليست إلا "دولة التجهّم و الإرجاء".

و يبدو أن التنظيم قد انفرط عقده و لم يعد في وسع البغدادي السيطرة على الصراعات الإيديولوجية لأتباعه ناهيك و أن الصحيفة الداعشية "النبأ" و التي، إلى أمد قريب جداً، ترجع إليه في كل نشراتها و خطوطها عموماً، قد أوردت في عددها 85 من سنة 2017 مقالا بعنوان "رموز لا أوثان" بأنفاس حازمية تكفيرية بيّنة تعصف بعلوية سلطة البغدادي على مفاصل التنظيم حيث جاء على لسان قلم الكاتب: "ولا يمكن حصر الأمثلة على (الرموز) التي امتدحها البعض، على ما علموا عنهم من خير و جهلوا عنهم من باطل و ضلال، كحال رموز (الإخوان) المرتدين، مثل حسن البنا ورموز (القاعدة) كعطية الله الليبي و أبي مصعب السوري و غيرهم كثير من أئمة الضلال و رؤوس الفتنة" (92). و مما يؤكد ذلك أن داعش لم تكفر عطية الله الليبي يوماً بل إن البغدادي قد رثاه طويلاً و اصفا إياه "بالمعامل المجاهد، صاحب العلم و الوقار" و ذلك بعد مقتله بإقليم وزيرستان في 22 أوت 2011 و يضيف كاتب المقال في إطار نفس الرموز البشرية و في إشارة إلى البغدادي نفسه دون ذكره: "فحذر من ربط جماعة المسلمين بعقيدة شخص من الأشخاص أو سنته، مهما ظهر من صلاحه و تقواه، و اتباعه للسنة، و براءته من الشرك و أهله، و مهما كان له من فضل و جهاد و إمامة في الدين"

و إذ يعتقد الملاحظون أن نجم تنظيم الدولة شأنه شأن القاعدة في أفول، فإن أتباع التيار الحازمي و هم نخبة الغلاة الدواعش و أشدهم ضراوة و حقدا في صعود مستمر ناهيك و أنه استقطب عدداً كبيراً من الحاقدين على تنظيم البغدادي المخيب للأمال في نظرهم و قد اعتمد منظرو التيار على تضييق مسائل الرأي بما يقطع مع الجدل فيها و البت في الأمور الخلافية التي عصفت بداعش كتكفير عموم الشيعة و الجماعات الإسلامية الأخرى و الموقف من الدولة و الديمقراطية و أشكالها و الطوائف و الأقليات كاليهود و النصارى و الأكراد و الإيزيديين.

و في مايلي مقال تفصيلي على نشأة و فكر التيار الحازمي حسب مقتطف من المقال الصادر في العدد 14181 من المجلة الإلكترونية الشرق الأوسط الصادر بتاريخ 25 سبتمبر

2017: " يعتبر «عدم العذر بالجهل وتكفير المعين والعامي وتكفير من لم يكفره» أهم أصول وأفكار التيار الحازمي، وقد أسس لهذه الأفكار أحمد بن عمر الحازمي المعتقل حالياً، الذي تأثرت به مجموعة من التونسيين والمغاربة كان من أبرزهم أبو جعفر الحطاب عضو اللجنة الشرعية لجماعة أنصار الشريعة في تونس وأبو مصعب التونسي أحد قياديه، وكذلك أبو عبد الله المغربي وغيرهم ممن انضموا لـ«داعش» بعد إعلان خلافته، وتولوا مناصب مهمة في لجانه الشرعية والإعلامية حينها، ولا يزال البعض على ما يبدو موجوداً فيه.

نجح الحازميون في إقصاء كبير شرعي «داعش» تركي البنعلي (المقتول سنة 2017) عن صدارة مشهده النظري، واضطروه كما اضطروا غيره من شيوخ داعش وغيره قبل وفاته لكتابة ردود على أفكارهم وخطابهم في عدم العذر بالجهل وتكفير المعين والعامي، كما كتبوا الردود كذلك عليه.

لقد بدأ بزوغ «التيار الحازمي» منذ أواسط عام 2014 بعد تكفير عدد من خطبائه لمخالفهم، ومن لم يكفر الكافر من قيادات «داعش»، الذين دعواهم لتكفير شيوخهم السابقين في «القاعدة» وغيرهم من الجماعات المتطرفة، وتكفير من لم يكفر من يقبل بالقوانين الوضعية، مثل أيمن الظواهري وعطية الله الليبي وغيرهما من شيوخ «القاعدة». وكانت البداية إعلامياً باعتقال أبو عمر الكويتي (واسمه بالكامل حسين رضا لاري) في أغسطس (آب) 2014 ثم إعدامه في سبتمبر من العام نفسه، وأعقبه إعدام التونسي أبو جعفر الحطاب في 7 مارس (آذار) سنة 2015 وتم اعتقاله مع مجموعة أخرى من الحازميين في سبتمبر سنة 2014، كان أبرز المعتقلين حينها حسب بيان للحازميين في هذا التاريخ منشور على الشبكة العنكبوتية: أبو جعفر الحطاب، أبو مصعب التونسي، أبو أسيد المغربي، أبو الحوراء الجزائري، أبو خالد الشرقي، و أبو عبد الله المغربي، وقد كتب أحد أنصار التيار الحازمي بياناً في سبتمبر 2014، وقعه باسم "مصلحة التوحيد" وعنوانه: "مناصرة الإخوة المأسورين في دولة الجهمية

الكافرين"، في إشارة لـ"داعش" بعد أسر شيوخ هذا الفكر المذكورين واصفا دولة «داعش» بدولة الكفار الملاعين والتجهم قائلًا: «تجاوزت دولة البغي والتجهم مرحلة البيانات الكاذبة، إلى التحرك الميداني باختطاف المؤمنين من منازلهم، والزج بهم في غياهب السجون، لأجل تكفير المشركين، وصاحب ذلك ترويع نساءهم، وانعدام الأمن والأمان الذي كان يحلم به كل موحد في ظل دولة البغدادي، وفعلوا كما يفعل الطواغيت المعاصرون تماماً»، هكذا كانت التجربة الفاشلة بجوار مزايدات التكفير ومتابعة الغلو والخروج ملمحا واضحا في هذا البيان التراشقي بين الحازميين وداعش.

رغم تعدد أسماء شيوخ ومنظري التيار الأكثر غلوا في داعش والجماعات المتطرفة العنيفة، فإنه اشتهر بنسبته لأحمد بن عمر الحازمي المعتقل حاليا، الذي اتسع تأثيره بالخصوص إلى تونس وبلدان المغرب العربي، ورغم اعتزاز الحازمي واهتمامه بالنحو واللغة، وتأثره بالفكر المدخلي في التصفية والتكفير، خصوصاً أن من شيوخه محمد الخضر الشنقيطي وأحد رموز المدخلية محمد علي آدم الإثيوبي، حسبما يرى الباحث المغربي عبد الغني مزوز في ورقة له عن «الصراع بين البنعلية والحازمية»، فإن القضية الرئيسية الواضحة في خطب وتسجيلات وموقع الحازمي على الشبكة العنكبوتية هي إلحاحه على «عدم العذر بالجهل»، وإيمانه بتكفير المعين والمخالف دون إعدار، وأيضاً تكفير من لم يكفره، ويهتم اهتماما خاصا بالتمييز في التوحيد وشرح كتبه، ويصرح في أحاديثه بمخالفته لأنمة كبار كالإمامين ابن تيمية وابن عبد الوهاب في قولهم بالعذر بالجهل، كما يخالف غيرهما.

ونلاحظ أن الحازمي المهتم والمكرس تعلمه للغة أراد أن يتكلم في الفقه دون ضابط من تراثه ورغبة في تصفية التوحيد والموحدين كما يراهم وأتباعه، لا يدور خارج كلمة واحدة هو أن «الأصل في الناس الكفر»، كما نقل عنه بعض عارفيه، وأعلن أمام صحب له أنه «لا يصلح

خلف أئمة المساجد»، ويؤكد أن كل من أتى كفراً فهو كافر، ولا عذر بجهل ولا تأويل! في ظاهرة حشوية تتجاهل كل تراث أصول الفقه والاعتقاد ومدوناتهما.

أما الثاني من أبرز ممثلي الحازميين فكان «أبو جعفر الحطاب»، وهو عضو اللجنة الشرعية السابق في جماعة «أنصار الشريعة» بتونس حتى 7 يونيو سنة 2013، حيث نشر في هذا التاريخ رداً على الأردني إياد قنبيي بخصوص فتوى «لأنصار الشريعة» في تونس بعدم جواز التعامل مع المحاكم، وأقسام الشرطة، وعلى تكفير عناصرها وعدم قبول العذر بالجهل في هذه المسائل، ثم انضم لدولة «داعش» وهاجر إليها، وصار من كبار شرعييها، حتى إعدامه في 7 مارس سنة 2016.

وقد نشر الحطاب رسالة صوتية بعنوان «الكواشف الجليلة على أن العذر بالجهل عقيدة الأشاعرة والجهمية» وله كثير من الفيديوهات والدروس في التأكيد على تكفير المعين، وعدم العذر بالجهل، والرد على من انتقد ذلك خصوصاً من شيوخ «القاعدة» و«داعش»، وإن كان على العكس من أحمد الحازمي يحاول ربط ذلك بأئمة السلف اقتطافاً من أقوالهم، بتأويل منحرف لكلياتهم وجزئياتهم، وله في ذلك محاضرة يصور فيها عدم عذر ابن تيمية في التكفير بالجهل، أو رفضه التأويل عذراً، أو قوله بتكفير المعين، وهو ما تنفيه نصوص ابن تيمية بالكلية، حيث أُلح على ذلك في أكثر من موضع

ومن أبرز منظري الحازميين أبو مصعب التونسي أيضاً الذي أعدم مع أبو جعفر الحطاب في مارس سنة 2016، وكان عضواً في أنصار الشريعة في تونس، ثم صار أحد قضاة «داعش» في منطقة الشرقية بسوريا، والذي صرح بتكفير الظواهري، لعدم تكفيره عوام الشيعة، فإما أن تكفر معهم أو تكون كافراً مرة واحدة!

كذلك، دخل الحازمية في صراع مع قادة «داعش» لإصرار الأول على تكفير كل مخالفيهم، ومن لم يكفر مخالفيهم، وتصدى لهم تركي البنعلي قبل رحيله، لكنه تم إقصاؤه مما يعني قوة الحازميين وتأثيرهم داخل «داعش»، وأتى بيان للجنة المفوضة في مايو (أيار) سنة 2017 أعلى لجنة قيادية في «داعش» يتصالح مع خطاب الحازميين؛ أن الأصل في الناس الكفر وأنهم يقولون بتكفير المعين، وهو ما رفضه البنعلي قبل رحيله بعد ذلك بأسابيع، مما يعني إمكانية ابتلاع الحازميين لـ«داعش» أيضاً. ختاماً يبدو أن التيار الحازمي الذي وصل إلى ما وصل إليه متطرفو وغلاة الخوارج، في تكفير كل من يخالفهم، سيبتلع «داعش» فكراً وخطاباً ويؤكد نهايتها الأيدولوجية كما تحتضر ميدانيا...".